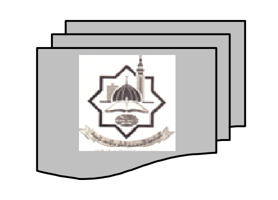


تجليات وحدانية الله تعالى
في كلمة التوحيد

د. أبو بكر محمد سويسي*

تعتبر كلمة التوحيد[1] الركن الأساسي في العقيدة الإسلامية، والإيمان بفحواها وحقيقتها يفضي بالإنسان إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى بكونه واحداً منفرداً بالخلق والتدبير لا يشاركه في خلقه أحد، وأنه ﷻ هو الفعّال المتصرف، وهو رب كل شيء، المتفرد باستحقاق العبادة والتقديس، فلا يستعان إلا به، ولا يُخضع إلا إليه، ولا يماثله أحد في أسمائه وصفاته، وقد جعل الإسلام مفتاح هذا الإيمان النطق بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي تتضمنها شهادة الإسلام (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله)، (فالشهادة بوحدانية الله تتضمن كمال العقيدة في الله من جهة الربوبية؛ الخلق والتربية، والألوهية، العبادة)[2].

وكلمة التوحيد هي الكلمة التي جاء لنشرها جميع الرسل، قال تعالى: ﴿ أَنِ

* الجامعة الأسمرية.

1 - وقد أطلقت كلمة التوحيد على، لا إله إلا الله، لإفادتها التوحيد، فهي قد نفت حقيقة الألوهية عن غير الله تعالى، انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص 109، المكتب الإسلامي، ط التاسعة، 1988 ف، وانظر: رسالة التوحيد، محمد عبده، ص 43 دار إحياء العلوم، بيروت، ط الرابعة، 1982ف.

2 - الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت، ص 11 بدون طبعة .

اعْـبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِـبُوا الطَاغُـوت ﴾ [النحل من الآية 36]. وهي الكلمة التي أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إليها، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَـةٍ سَـوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِـنْ دُونِ اللَّـهِ ﴾ [آل عمـران: من الآية 64]، قال ابن كثير في تفسيره للآية: والكلمة هي الجملـة المفـيدة كما هي هنا ثم فسرها بقوله: ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا ناراً... بل نفرد العبادة لله تعالى(3).

والكلمـة هـنا في قولنا: كلمة التوحيد. كقول النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمـة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»(4). وقد شاع إطلاق كلمة التوحيد على لفظ: لا إلـه إلا الله. بـين فقهـاء الأمـة الإسلامية وعلمائها، بل إنهم يصرحون بأن لا إله إلا الله هـي (كلمـة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم)(5). ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّـهِ مَـا قَالُـوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: من الآية 74]، وكلمة الكفر هي ما قاله الجـلاس بن سويد في شأن النبي ﷺ، فقد قال: (إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر الحمـير، فـبلغ ذلـك الـنبي ﷺ فقرأه عليه فحلف أنه ما قال)(6)، فنزل قوله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ﴾ [التوبة من الآية 74].

هـذا وإن توحيد الألوهية توحيد شامل، توحيد في الصفات وتوحيد في الأسماء، فـالله تعـالى موجـود ومتصـف بالعلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والجمال والحكمة، والعقيدة الإسلامية توجب علينا أن نؤمن بوجود الله وصفاته بحسب ما أخبرنا به القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ هُـوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الـرَّحِيمُ. هُـوَ اللَّـهُ الَّـذِي لا إِلَـهَ إِلَّـا هُـوَ الْمَلِـكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّـرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَـا فِـي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر:22 - 24]. (فالذي يوجبه علينا الإيمـان هـو أن نعلـم أنـه موجود ولا يشبه الكائنات، أزلي أبدي حي عالم، مريد، قادر، متفـرد في وجـوب وجوده وفي كمال صفاته، وفي صنع خلقه، وأنه متكلم سميع بصير

3 - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 1، ص 371، دار المعرفة، بيروت .

4 - انظـر تفسـير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 18، ص 124، الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان .

5 - شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص 109 .

6 - التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن جزي الكلبي ص 274، الدار العربية للكتاب .

وما يتبع ذلك من الصفات التي جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه)[7].

هـذا وقـد أشـار القـرآن الكـريم إلى أسماء الله الحسنى التي تدل على سمو ذاته ورحمـته وفضـله ومـن هـذه الأسمـاء: الـواحد، الأحـد، الصمد، القدوس... بهذه الأسماء يناجـي المسلم ويسأله ويتقرب منه، قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسـراء من الآية 110]، وقال عليه السلام: إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، إنه وتر يحب الوتر)[8].

وهـذا العـدد ليس على سبيل الحصر، بل على سبيل الإخبار، يدل على هذا قوله عليه السلام: «اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عـدل في قضـائك، أسـألك بكـل اسـم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمـته أحـداً مـن خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ...». والآيات الدالة على ثبوت توحيد أسماء الله وصفاته كثيرة منها سورة الإخلاص - على سبيل المثال - فكل اسـم من أسماء الله تعالى - التي وردت في سورة الإخلاص - تفيد الكمال والجلال لله عـز وجل، وينفي عنه صفات النقص، فهي سورة جامعة تفيد ثبوت التوحيد في الأسماء والصفات، (فسورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعـالى مـن الأحديـة المنافية لمطلق المشاركة بوجه عام من الوجوه، ونفي الولد والوالد هو من لوازم الصمدية، ونفي الكفر المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير)[9].

هـذا ولا يسـوغ لنا نحن المؤمنين أن نبحث بالسؤال عن كنه هذه الصفات وهذه الأسمـاء كـيف سمعـه أو بصـره أو اسـتواؤه على العرش...، لأن معرفة الصفات تتوقف علـى معـرفة الـذات ومعـرفة الذات أمر مستحيل ومن ثم فمعرفة الصفات محال أيضاً، فهذه الأسماء والصفات من الأمور الثابتة يقيناً وهي كمال ولايشابهه فيها أحد من خلقه.

---

7 - رسالة التوحيد، محمد عبده، ص 69 .

8 - الأسمـاء والصـفات، أحمـد البيهقـي، تحقـيق: عـبد الـرحمن عمـيرة، ص 22، دار الجيل، بيروت، ط الأولى، 1997 ف، ج 1 .

9 - زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية ج 1، ص 81، 82، دار أسامة الإسلامية، ط الثانية، 1981 ف .

حقيقة كلمة التوحيد وآثارها

إن عظمة كلمة التوحيد تجل عن الوصف، ويكفي أنها الكلمة الوحيدة التي تخرج قائلها من الشرك إلى الإيمان الخالص، فهي المميزة للمسلم من غيره، قال رسول الله ﷺ: « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير »[10].

وهي تتضمن عنصرين هامين هما: الإيمان بوجود الله تعالى، والإيمان بوحدانيته، حيث إن معناها ليس في الكون أحد جدير بأن يعبده الناس ويسجدوا له ويطأطئوا له رؤوسهم في العبادة إلا الله تعالى، فيتلخص في كلمة التوحيد الإيمان الكامل والإقرار الصحيح بألوهية الله ووحدانيته، فإذا آمن العبد بذلك علم أن الله لم يتركه بدون هداية ولا رشاد وإنما بعث إليه رسلاً مبشرين ومنذرين، آخرهم وخاتمهم محمد ﷺ، هذه الحقيقة التي عرفها الناس من قبل، فالمشركون يعترفون بوجود إله عظيم، خالق ومدبر لهذا الكون، قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت 61].

ولا يقف هذا الاعتراف عند حدود الآثار المحفوظة عندهم من ملة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - بل إن نواته الأولى تكمن في أعماق النفس البشرية، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف 172].

فالله سبحانه وتعالى أودع في النفس البشرية التي لم تتأثر بمؤثرات الجحود والإنكار أنه سبحانه وتعالى الكامل في أسمائه وصفاته والموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله - عليهم الصلاة والسلام - ، ومن كماله المقدس أن شهد لنفسه بالوحدانية، وكذلك ملائكته وأنبياؤه ورسله - عليهم الصلاة والسلام - قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران 18]، فعملت الآية الكريمة على(إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجلِّ

10 - فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ج 1، ص 138 دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، 1989 ف، وانظر: فتح المنعم، شرح صحيح مسلم، موسى شاهين لا شين، ج 1، ص 145 مطبعة الفجر الجديد .

شاهد بأجلِّ مشهود به)[11]. ولكن هذا التوحيد الأولي والفطري كما يسميه القرآن، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم من الآية 30]، لم يكن إلا فكرة نظرية مغمورة تحت ركام من المعتقدات التي تؤدي إلى عدد كبير من الآلهة، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف 106]. فهم لا يدعون الله إلا إذا ألم بهم خطر كبير، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [يونس 22]. ولا يقدمون له من القرابين إلا ما قل وحقر، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً ﴾ [الأنعام من الآية 136]. فمن هذه النصوص القرآنية وغيرها، نحاول محاولة الكشف عن أبعاد كلمة التوحيد ونلحظ أنها نقطة الانطلاق التي يدور حولها الإقناع القرآني بأحقيتها وبطلان ما خالف مضمونها ودلالاتها.

احتواء القرآن الكريم لكلمة التوحيد

بالنظر لكلمة التوحيد في القرآن الكريم نرى أنها وردت على جهتين:

أولاً: جهة التصريح

ونعني به التصريح، بما عرف في الشريعة الإسلامية، بكلمة التوحيد، وهي: لا إله إلا الله. مع اختلاف بناءاتها وصيغها التي حواها القرآن الكريم، ومن هذه الصيغ والأبنية، قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات 35] إن مجيء المقصور عليه باسم (الله) جل وعلا، له حضور في ذهن المخاطبين آنذاك، لكونه معلوماً لديهم، قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت: من الآية 61]. ولما كان سياق الآية أنها واردة في بيان عصيان العصاة وإنكارهم وحدانية الله تعالى وأنه، أيضاً، (تعليل جزائهم وبيان إجرامهم بذكر ما كانوا عليه من التكبر عن الاعتراف بالوحدانية لله)[12] أخبر بالاسم المعهود لديهم وهو (الله) تعالى، وهو الاسم الذي عرَّف به ذاته العلية مخاطباً سيدنا موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ [طه: من الآية 14].

---

11 - شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص 90 .

12 - تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 23، ص 107 .

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِق وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المـزمل: 9]، لمـا كـان اعـترف المخاطـبين بألوهية الله تعالى أمراً حاصلاً جاءت الآية مقـررة هـذا الاعـتراف، وجاعلـة إيـاه وسـيلة لحصول التقرير منهم بوحدانية الله تعالى، وعلـيه فالمعنـى: أن الله تعـالى هـو ما تعلمونه وتعترفون به من قبل. انطلاقاً من أنه (إذا تقـدم في الكـلام اسـم ظاهـر ثـم أعيد ذكره أومأ المتكلم إليه بأدنى لفظ ولم يحتج إلى إعـادة اسمـه لـتقدم ذكـره)[13]، وهـنا وإن لم يـتقدم المضـمر إلا أن العلـم بـه يكفـي لاستحسـان إضـماره فضـمير الغائـب (هو)، (لما كان مذكوراً بالقلب استغنى عن اسمه الظاهر)[14].

ومجـيء اسم الجلالة في كلمة التوحيد اسماً مضمراً فيه مراعاة للمنهج المناسب الذي يلائم طبيعة التعامل مع المخاطبين، فالإنسان بحكم طبيعته لا يقبل بسهولة الطعن فـيما يـراه حقـيقة، ومحاولـة زعـزعة هـذه الحقـيقة بحقيقة أخرى وإجماع ذوي العلم والاختصـاص علـى صـدق فكـرة معيـنة، علامـة في نظـر سـائر الناس على صحة هذه الفكـرة)[15]. إضـافة إلى مـا في هـذه الآيـة مـن إخـبار بإبطال نظام الآلهة المتعددة عند المخاطـبين عـن طـريق التعـريض (فلمـا كانـت ربوبيـته للعالم لاينازع فيها المشركون أعقـبت بما يقتضي إبطال دعوى المشركين تعدد الآلهة بقوله: « لا إله إلا هو » تعريضاً بهم في أثناء الكلام)[16]. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَـهَ إِلَّـا هُـوَ وَأَعْـرِضْ عَـنِ الْمُشْـرِكِين ﴾ [الأنعـام: 106]، فمجـيء كلمـة التوحيد لبيان (اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحي)[17]. ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ [طه من الآية 14].

إن سـياق الآيـة هنا هو سياق التعريف، تعريف موسى ﷺ باسم خالقه (إني أنا الله) وقـوع اسـم الـذات الإلهية ضمير تكلم (أنا) فيه توكيد لصفة الوحدانية من خلال ما

13 - نـتائج الفكـر في الـنحو، لأبـي القاسـم عـبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، ص 218، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، منشورات جامعة قاريونس 1978 ف .

14 - المصدر السابق، ص 222 .

15 - مـدخل إلى القـرآن الكـريم، محمد عبد الله دراز، ص 71، دار المعـرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1990 ف .

16 - تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 29، ص 267 .

17 - تفسير الكشاف، الزمخشري، ج 2، ص 55 دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان .

يتضمنه ضمير المتكلم من شعور بالعظمة والكبرياء التي تتلاءم مع مقام التعريف الوارد في هيئة التعظيم وليقع الأمر في نفس موسى - عليه السلام - أفضل موقع ويتمكن منها أفضل تمكن، كما أن اختيار ضمير المتكلم يجانس سياق مجموعة الآيات وبالتحديد يجانس المسند إليه الواقع (مبتدأ) فيها، آيات شبه متتالية وهي: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ [طه 12، 13].

ثانياً: جهة التضمين

وردت كلمة التوحيد ضمناً في مواضع عدة من كتاب الله تعالى، ومن هذه المواضع قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [البقرة من الآية 58]. وقولوا حطة، معناها: (قيل لهم: قولوا لا إله إلا الله ... أي قولوا شيئاً يحط ذنوبكم)[18] ويحتمل أن يكونوا تعبدوا بهذا اللفظ بعينه (حطة) وبمجرد قول هذه الكلمة تكفر عنهم سيئاتهم وتغفر لهم خطاياهم، فهي (كلمة أمر بها بنوا إسرائيل لو قالوها لحطت أوزارهم)[19].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: من الآية 100] قال ابن عباس: (يريد أشهد أن لا إله إلا الله)[20]. وقد روي عن قتادة أنه قال في بيان هذه الآية: (والله ماتمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل، فرحم الله امرءا عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب ...)، وهذا ما يحصل للكافر في قبره، كما يروي أبو هريرة من أنه إذا وضع في قبره فيرى مقعده، قال فيقول: رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً[21].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل من الآية 89] فالحسنة هي لا إله إلا الله[22]. ومن هذا التضمين قوله تعالى: ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾

---

18 - الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج 1، ص 410 دار الشام للتراث، ط الثانية، بيروت .

19 - الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، مادة: ح . ط . ط. تحقيق أحمد العطار، دار العلم للملايين، ط الثالثة، 1984 ف

20 - الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج 12، ص 150 .

21 - تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 3، ص 255 .

22 - انظر التسهيل في علوم التنزيل، لابن جزي ن ص 491، الدار العربية للكتاب .، وانظر تفسير القرآن العظيم،لابن كثير، ج 3، ص 378 .

[الفتح من الآية 26] فقد نزلت هذه الآية في أحداث صلح الحديبية[23]، وذلك لما أبى المشركون كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» وكتابة «هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله ﷺ» علواً واستكباراً منهم، عندها نزل قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح من الآية 26]، فكلمة التقوى هي: لا إله إلا الله[24].

وقد كنّى الله سبحانه عن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بقوله: كلمة التقوى؛ لأنها هي التي يتقى بها من الشرك، ومن هذه المواضع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت من الآية 30]. فمن بين ما فسر به المفسرون الاستقامة هنا بأنها استقامة على شهادة أن لا إله إلا الله، فهم استقاموا وداوموا عليها حتى ماتوا ولم يلتفتوا عنها، ولم يروغوا روغان الثعالب[25]. ومن هذه المواضع أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ [النازعات 18] فهذه دعوة لفرعون ليخلص نفسه من العقيدة الفاسدة والضلالات الباطلة، وقد فسرت هذه الدعوة بأن المقصود منها هو توحيد الله تعالى بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وهنا روى الضحاك عن ابن عباس قال: (هل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله)[26].

القيمة اللغوية على مستوى ألفاظ كلمة التوحيد

لا إله: لا نافية للجنس، والجنس هو الماهية، ويتحقق الجنس بواحد أو أكثر، فقولك: عندي رجل تحقق وجود جنس الرجل بواحد، هذا في عملية الإثبات، أما في النفي فيعم نفيه كل أفراد الجنس، كقولك: لا رجل في الدار، فانتفى وجود جنس الرجل فيها، فـ (لا) يقصد بها هنا التنصيص على جميع أفراد الجنس، فالمقصود من لا النافية للجنس (التنصيص على استغراق الجنس كله)[27]. و(لا) النافية للجنس تعمل عمل إن فتنصب المبتدأ ويسمى اسمها وترفع الخبر ويسمى خبرها، ومع هذه المماثلة لأن هناك

---

23 - انظر: لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، ص 262، الدار التونسية للنشر ط الثانية، 1984 ف .

24 - انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ج 4، ص 194 .

25 - المصدر نفسه ج 4، ص 98 .

26 - الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج 19، ص 199 .

27 - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ج1، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، 1961، ص 226 .

مجموعة من نقاط الاختلاف بينهما، من أبرزها أن (لا) لا تعمل إلا في النكرات بخلاف (إن)، فـ (لا) (لا يكون اسمها وخبرها إلا نكرة، فلا تعمل في المعرفة)[28]. و (لا) في كلمة التوحيد نافية للجنس، و(إله) اسمها، أما خبرها فاختلف النحاة في تقديره فقيل: التقدير لا إله موجود إلا الله، أو لا إله لنا إلا الله، أو لا إله بحق إلا الله، حيث (يحذف الحجازيون خبر لا كثيراً ومنه كلمة الشهادة ومعناها: لا إله في الوجود إلا الله)[29]. ولما كان المشركون يدّعون وجود آلهة أخرى أو وجود الإلهية في أصنامهم وهي موجودة بين ظهرانيهم كان الرد بحسب اعتقادهم وشبهتهم، والمراد أن وجود آلهتكم وعدمها سواء لأنه لا معبود موجود إلا الله تعالى[30].

إلا الله: (إلا) في كلمة التوحيد بمعنى غير، ومعنى هذا أن ما بعد (إلا) يكون مغايراً لما قبلها، (ومنه قول الموحدين: لا إله إلا الله، معناه لا معبود غير الله، و إلا في الكلمة بمعنى غير)[31]. فهي هناك كما في قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء من الآية 22]، فمعنى الآية: لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا[32]، ومجيء كلمة التوحيد بـ (إلا) لتؤدي معنى الوحدة، وتقدير لفظ (غير) في بيانها لتنفي وجود مدبر لهما (السماوات والأرض) إلا الله تعالى.

وقد قدم النفي في كلمة التوحيد (لا إله)، لأن النفي فيه تفريغ للقلب وإخلاء للذهن من كل جنس المقصود، فإذا كان القلب خالياً كان أقرب إلى ارتسام وتمثل التوحيد لديه، فبه يحصل تفريغ كامل وتام للذهن من كل ما تعلق به ليكون إثبات المثبت له وقع مميز، وله رسوخ وعمق في العقيدة والنفس. فقولك: لا إله يخرج كل شيء سوى الله تعالى عن القلب حتى إذا صار القلب خالياً عن كل ما سواه واستعد استعداداً تاماً جاء الأمر المثبت (إلا الله) وله قوة وتأثير على النفس، فيحصل التوحيد عندها بلا مزاحم.

إلا الله: لفظ الجلالة، الله تعالى اسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية

28 - شرح ابن عقيل، ج 1، ص 226، وانظر: الكتاب لسيبويه، ج2، ص 274، 296،تحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، 1966

29 - شرح المفصل، لابن يعيش، ج1، ص 107 .

30 - انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج1، ص 75 .

31 - الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج1، ص 103 .

32 - انظر الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج11، ص 287، وانظر شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج1، ص 401، دار إحياء الكتب العربية .

(فهذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الإله الأعظم ولم يتّسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع)[33]. فهو بمثابة الاسم العلم غير مشتق من شيء، واحتج لهذا بقوله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ [مريم: من الآية 65]. والمعنى (هل تعلم أحداً يسمي الله تعالى غير الله أو يقال له الله غير الله)[34]. وقيل: إنه مشتق (وفي اشتقاقه قولان: أحدهما أن أصله إلاه على زنة فعال من قولهم: أله الرجل يأله إلاهة أي عبد عبادة ... والثاني اشتقاقه من لاه يليه: إذا تستر، كأنه سبحانه يسمي بذلك لاستتاره واحتجابه عن إدراك الأبصار)[35].

أما الألف واللام في لفظ الجلالة (الله) ﷻ، فالظاهر أنها للعهد، أي الذي عهدت له الألوهية و (أل) العهدية هي (التي تدخل على النكرة فتفيدها درجة من التعريف تجعل مدلولها فرداً معيناً)[36]. فلو كانت (أل) في لفظ الجلالة للجنس لما أفادت الكلمة، لأن معنى الجنس أن تدل (أل) فيه على الماهية المطلقة، مثل: الرجل خير من المرأة. أي مطلق الرجل، فعلى هذا يستحيل كون (أل) في (الله) للجنس لأنه علم لذاته تعالى ولايشمل غيره جل وعلا[37]. ونقل القرطبي قول من يرى أن الألف واللام في لفظ الجلالة غير زائدة وأنها ملازمة لاسم الله تعالى، (وروي عن الخليل وسيبويه: أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفها منه، قال: قال الخطابي: والدليل على أن الألف واللام من بنية الاسم ولم يدخلا للتعريف دخول النداء عليه، كقولك: ياالله، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام التي للتعريف، ألا ترى أنك لا تقول: يا الرحمن ولا يا الرحيم، كما تقول: يا الله، فدل على أنها من بنية الاسم[38].

وأرى أن هذا يشير إلى الفرق بين لفظ (الله) ولفظ (إله) حيث يطلق (إله) على الله وغيره، كما أطلقه المشركون على أصنامهم[39]، بينما (لم يتسم باسم الله غير الله

33 - الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج1، ص 112 .
34 - المصدر السابق، ج11، ص 130 .
35 - شرح المفصل، لابن يعيش، ج1، ص 3 .
36 - النحو الوافي، عباس حسن، ج1، ص 423 دار المعارف، ط السابعة .
37 - انظر: شرح ابن عقيل، ج1، ص 105، وانظر: شرح المفصل، لابن يعيش، ج5، ص 86 .
38 - الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج1، ص 103 .
39 - قال تعالى: ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء﴾ (هود: من الآية 101).

تعـالى)[40]. فاسم الله بمثابة علم لذات الواجب الوجود، ولفظ - إله - اسم جنس يطلق علـى هـذا الجـنس، لـذلك أطلقه المشركون على آلهتهم المزعومة بينما لم يطلقوا لفظ (الله) إلا على الله سبحانه وتعالى المتصف حقاً بالألوهية[41].

القيمة اللغوية على مستوى تركيب كلمة التوحيد

إن كلمـة التوحـيد صـيغة جامعة بين الإثبات والنفي، وهي بهذا تدل على حصر الألوهـية في الله تعـالى، فالجمع بين النفي والإثبات يفيد القصر في البلاغة، وهو الإلزام وعـدم الـتجاوز، تقـول: (قصرت نفسي على الشيء إذا حبستها وألزمتها إياه، كما تقول: قصـرت الشـيء علـى كذا إذا لم تجاوز به غيره)[42]. وجعل أحد جزئي الكلام مقصوراً علـى الآخـر بحيث لا يتجاوزه إلى غيره على وجهين: إما على جهة الحقيقة، وإما على جهة الإضافة إلى شيء معين، وكلمة التوحيد هي من قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقـياً، إذ لا موصـوف حقـيقة بهـذه الصـفة - الإلوهـية - سـوى الله تعالى - فانتفت مشاركته ﷻ في هذه الصفة وقصرت عليه وحصرت فيه واختصت به على جهة الحقيقة، والقصـر مـن المـؤكدات، بل إنه توكيد على توكيد[43]. إن إثبات وحدانية الله تعالى بهذا التركـيب الجامـع بـين النفـي والإثـبات لـه مـا يـؤكده ويـبين أبعـاده وقضاياه، حيث إن (الإثـبات المجـرد قـد يتطـرق إلـيه الاحـتمال ولهذا - والله أعلم - لما قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: 162] قال بعده: ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [البقرة: 163] فإنه قد يخطـر ببال أحد خاطر شيطاني: هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره، فقال تعالى: ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: من الآية 163] [44].

كمـا نلاحـظ أن النفي في كلمة التوحيد جاء بـ (لا) دون سواها من أدوات النفي بينما وردت (ما) في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [ص: من الآية 65] وسبب هذا الاختيار لـ (لا) أنها أبلغ في نفي الذوات بدليل حذف خبرها كثيراً إيذاناً بأن الغرض هو الاسـم لا الخبر، في حين لا يمكن حذف خبر (ما) لأنه هو المقصود بالنفي، ولما كان

40 - التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي، ص 389 .
41 - انظر روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ص 99، دار العلم للملايين، بيروت، ط 30، 1995 ف .
42 - علم المعاني، عبد العزيز عتيق، ص 159. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1985ف.
43 - انظر: علم المعاني، درويش الجندي، ص 149. دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
44 - شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ص 109 .

المقصـود في كلمـة التوحـيد نفـي ذات إلـه سوى الله تعالى كانت (لا)[45] أولى بذلك. ولمـا كانـت (لا) النافـية نافـية للجنس على جهة الاستغراق لكونها جواباً لما كان على طـريقة هـل من إله غير الله ؟ استغنت عن (من) الموجودة مع (ما) حيث حذفت (من) مـع قصـد المعنـى وتضـمينه في السـياق مع الاسم (إله) ودلالة الاسم أمكن من دلالة الحرف[46].

إضـافة إلى أن (لا) دخلـت علـى اسم مفرد. واستغراق المفرد أكثر تناولاً لأفراد الجنس من استغراق الجمع، بدليل صحة قولك: لا رجال في الدار. إذا كان فيها رجل أو رجلان، في حين أن قولك لا رجل في الدار. لا يصدق ولا يصح إذا كان فيها رجلان أو رجـال. ومـثل هـذا مـا قالـه الزمخشـري في تفسير قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّـي﴾ [مـريم: مـن الآيـة 4]، فهـو إنمـا وحـد العظـام؛ لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسـية، وقصـده إلى أن هذه الجنس الذي هو عمود البدن، وبه قوامه قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصد إلى معنى آخر وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها[47].

وإذا نظـرنا إلى التركـيب وعناصـره المـؤلفة لأجـزائه رأينا أن كل العناصر اللغوية المكـونة لـه كانـت حـروفها جوفـية ولـيس فـيها حـرف من الحروف الشفهية والحروف الجوفـية هـي الـتي يكون مخرجها من الجوف لا من الشفة، والحروف الشفهية ثلاثة هي الـباء والفـاء والمـيم، وسمـيت شـفهية لأنـه مخرجها من الشفتين[48]، فكما أن معنى كلمة التوحـيد (لا إلـه إلا الله) يـتعلق بالقلـب وإجراؤها على اللسان دون القلب لا ينفع لذلك كانت الحروف المعبرة عن دلالتها حروفاً جوفية، ليس فيها حرف شفهي لتكون الحروف مشـابهة ومناسـبة لمعانيها. إضافة إلى أنه ليس بين حروف كلمة التوحيد حرف معجم، بل جمـيعها متجـردة عـن الـنقط، والحـرف المعجم هو الحرف الذي له نقط مثل: الباء، الشين، الجـيم وأعجمت[49] الحرف أي أزلت عجمته، أي إبهامه، بما يميزه عن غيره بنقط وشكل، وفي هذا التجرد من النقط إشارة إلى التجرد عن كل معبود سوى الله تعالى.

45 - انظر: شرح المفصل، لابن يعيش، ج5، ص 105 .
46 - انظر: المصدر السابق.
47 - تفسير الكشاف، للزمخشري، ج3، ص 15 .
48 - انظر: نتائج الفكر، للسهيلي، ص 346 .
49 - انظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة: (ع . ج . م)، دار صادر، بيروت، ط الثالثة، 1994 ف .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت (د.ط).
- الأسماء والصفات، أحمد البيهقي، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الجيل بيروت ط الأولى 1997 ف.
- التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم محمد بن جزي الكلبي، الدار العربية للكتاب.
- تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، الدار التونسية للنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار المعرفة، بيروت.
- تفسير الكشاف، للزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الشام للتراث، ط الثانية، بيروت.
- رسالة التوحيد، محمد عبده، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الرابعة 1982 ف.
- روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، دار العلم للملايين، بيروت ط 30، 1995ف.
- زاد المعاد في هدى خير العباد، لابن القيم الجوزية، دار أسامة ط الثانية.1981.
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح 1961 ف.
- شرح المفصل لابن يعيش، عالم الكتب، بيروت.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري تحقيق أحمد العطار، دار العلم للملاين ط الثالثة 1984 ف.
- العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي ط9، 1988 ف
- علم المعاني، درويش الجندي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- علم المعاني، عبد العزيز عتيق دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1985 ف.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى، 1989 ف.
- فتح المنعم، شرح صحيح مسلم، موسى شاهين لاشين، مطبعة الفجر الجديد.
- الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، 1966 ف.
- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، الدار التونسية للنشر، ط

الثانية، 1984ف.

- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط الثالثة، 1994 ف.
- مـدخل إلى القـرآن الكـريم، محمد عبد الله دراز، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، مصر 1990 ف.
- نتائج الفكر في النحو، أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي، تحقيق محمد إبراهيم البنا، منشورات جامعة قاريونس 1978 ف.
- النحو الوافي، عباس حسن، ط السابعة، دار المعارف.